

1. مقدمة:

شهد النقد الأدبي ظهور العديد من المناهج والمقاربات التي سعت إلى تحليل وتقويم العمل الأدبي مع التركيز في كل مرة على أحد أضلاع المثلث الإبداعي: المبدع، النص، القارئ، وتبعاً لذلك تعددت وتنوعت المناهج والمقاربات النقدية منطلقاً وغاية. ورغم ما تحمله هذه المناهج من حمولات فكرية وآليات منهجية إلا أنها تقدم عملاً نقدياً ناقصاً ومشوّهاً بل وتقف عاجزة لوحدها عن الإجابة عن عديد الأسئلة والإشكالات التي تحتاج إلى الإحاطة الكاملة بالعمل الأدبي، ومن هنا كان لزاماً التفكير في مقاربات ومناهج جديدة تحمل على عاتقها مهمة الدراسة الدقيقة والكافية للإبداع، بحيث تستفيد من العثرات التي وقعت فيها المناهج السابقة وتسدّ نقائصها.

وقد ظهرت دعوات غربية وعربية إلى التركيب والمزج بين مقاربات ومناهج متعددة لتحقيق رؤية واسعة وشاملة للعمل الأدبي تحت مظلة المنهج التكاملي من خلال استعانة الناقد "بجملة من المناهج التي يقتضيها الطابع التركيبي المعقد للنص الأدبي"¹ في حدود ما كان متوافراً من مناهج سياقية ونسقية.

لم يكتب للمنهج التكاملي الشيوع إذ لاقى معارضة شديدة قادها لفييف من النقاد معتبرين إياه مجرد دعوة "لا تخلو من عوائق وصعوبات تجعل منه طموحاً أكثر منه منهجاً عملياً ودعوة مثالية أكثر منه برنامجاً واقعياً"² أما على صعيد التطبيق فقد وصفوه بأنه مجرد "توفيق وتلفيق وترقيع من الصعب أن يغدو منهجاً قائماً بذاته"³ نظراً لغياب رؤية واضحة تحسن المزج والتركيب وهذا ما حدا ببعض النقاد إلى المزج بين المناهج مثنى وثلاث ورباع لاستخلاص الدلالة ما أسفر عن ظهور مناهج عرفت بالمناهج التركيبية كالبنوية التكوينية، والسيميوطيقا الأسلوبية، والأسلوبية النفسية، والنقد الموضوعاتي، والنقد المعرفي ... هذا من جهة.

من جهة أخرى كانت نهاية السبعينيات بداية مسار نقدي جديد حيث احتشدت "الساحة النقدية باتجاهات نقدية جديدة وأخرى أعيد إحيائها ... وكان القصد بطبيعة الحال توسيع مظلة ما بعد البنيوية لينضوي تحتها ذلك الزخم الجديد للنظرية في كل الاتجاهات، لتغطي مذاهب واتجاهات نقدية"⁴ فظهرت المادية الثقافية، والماركسية الجديدة، والتاريخانية الجديدة، والنقد النسوي، والنقد الثقافي.

وعلى صعيد آخر راح بعض النقاد يتحسسون كل صيحة في حقول المعرفة والفكر كي يُنعشوا بها النقد، ويبعثوا فيه الروح من جديد مغيّرين البوصلة شطراً لإبستمولوجيا سعيها إلى بناء نظرية أو مقارنة نقدية جديدة، خاصة بعد ظهور مقارنة معرفية جديدة أثبتت نجاعتها وفعاليتها في الحقول المعرفية - العلمية والإنسانية - مع الاستفادة من مقولات ما بعد الحداثة كالانفتاح والتسامح والحوار والتي لا تؤمن "بالفواصل والفوارق الثقافية المعرفية لأن أشكال المعرفة هي نفسها تتبع

أشكال المادة المدروسة نفسها" ⁵ وقد عرفت هذه المقاربة باسم الدراسات البينية أو المقاربة البين ميدانية (Interdisciplinarity)

2. النقد الأدبي والدراسات البينية:

1.2 مفهوم الدراسات البينية:

يتخذ تعريف الدراسات البينية أشكالا متعددة وفق زاوية النظر التي يُركّز عليها، فقد عرّفها ميتو نيساني M.Nissani بأنها " عملية تفاعل وتبادل للمعارف بين تخصصات مختلفة، وهو تبادل قد يفضي إلى أن تتكامل التخصصات المتداخلة فتكوّن تخصصا جديدا. " ⁶ فالدراسات البينية تنطلق من التفاعل والتبادل وصولا إلى التكامل أو الاندماج تحت راية فرع معرفي جديد.

أما ويليام نويل W.H.Newell وجولي تومسون كلاين J.T.Klein فيعتبران الدراسة البينية كل " دراسة مرجعها حقلان معرفيان فأكثر، وهي دراسة تجيب عن أسئلة وعن مشاكل يعسر على نظام معرفي واحد حلّها " ⁷ ويشير هذا التعريف إلى الغاية والسمة النفعية من تفاعل العلوم والحقول المعرفية والمتمثلة أساسا في الإجابة عن الأسئلة وإيجاد حلول لمختلف الإشكالات المعقدة والتي تضرب بجذورها وفروعها في علوم وتخصصات مختلفة كبديل عن النظام المعرفي الواحد الذي يقف عاجزا عن الإحاطة بها فضلا عن معالجتها بأدواته ومفاهيمه المحدودة ما يستدعي الاستعانة بتخصصات أخرى لحل المشكلة.

إذاً فأساس قيام الدراسة البينية هو " الجمع بين كفاءات أو أفكار آتية من ميادين علمية أو فكرية مختلفة لتحقيق هدف مشترك، وذلك بالتوسّل بمقاربات مختلفة لمواجهة مسألة بذاتها أو مشكل بذاته " ⁸ فالجمع بين التخصصات يعد تمهيدا لتحقيق التفاعل فيما بينها سعيا لبلوغ الهدف المشترك وهو تقديم الحلول للمشاكل المستجدة.

وقد أفادت العديد من العلوم والتخصصات من مزايا الدراسات البينية سواء أكانت علوما طبيعية أم إنسانية أم دقيقة؛ فتشعبت اهتماماتها، واتسعت آفاقها، وهذا ما حدا ببعض النقاد إلى الدعوة إلى تفعيلها في ميدان النقد. فهل في بعض المناهج والمقاربات النقدية شيء من البينية؟

2.2 أثر الدراسات البينية في النقد الأدبي:

لا ننكر مبدأ الانفتاح الذي جادت به مرحلة ما بعد الحداثة على العلوم عموما وعلى النقد الأدبي خصوصا فقد أصبح الأدب في العصر الحديث "بانفتاحه على العلوم الإنسانية المساندة للدراسة الأدبية بحاجة هو أيضا ماسة إلى تضافر التخصصات في دراسة النص الواحد وتأويله" ⁹ وهذا يعني النظر في ربط العلوم أو التخصصات المختلفة حسب التجارب العالمية والتي قطعت أشواطاً في هذا المضمار بغرض الاستفادة منها.

لكن لا يجب الوقوف عند تلك الأنماط بل لا بد من السعي إلى أنماط جديدة تراعي خصوصياتنا وسمات أديبنا خدمة وتفعيلا، وليس مجرد تقليد أو مواكبة جافة بلا روح، كما أن تفعيل هذه المقاربة لا ينبغي أن يخضع لمعيار أنها جديدة أو مختلفة وأنّ تطبيقها يعدّ سبقا نقديا يحوز صاحبه شرف الإبداع والسبق" بل ينبغي أن تخضع لمعيار أنها قد تكون الأكثر ملاءمة لاحتياجات علمية وبحثية نابعة من صميم الأوضاع الثقافية والاجتماعية وأكثر كفاءة في التعامل معها" ¹⁰ فالحاجة التداولية هي الدافع الأساسي والضروري لتفعيل الدراسات البينية في نقدنا الأدبي المعاصر.

وعليه فمبدأ عمل الدراسات البينية في حقل النقد هو التعامل مع النص الأدبي في ضوء مجموعة من التخصصات العلمية والحقول المعرفية؛ ومعنى هذا أنه من الصعب بمكان الحديث عن منهجية خالصة ومستقلة، بل هي مقاربة متداخلة ومتقاطعة بشكل يخدم فيه الواحد الآخر؛ أي أنها "مقاربة منهجية مفتوحة تدرس الأدب، وذلك في ضوء مجموعة من العلوم والتخصصات المعرفية المتعددة والمتشعبة، بغية الحصول على الدلالة، وبناء المعنى" ¹¹ فالهدف هو استخلاص الدلالة التي لا يمكن تحصيلها أو تحصيل شيء يسير منها بمنهج واحد، كما أن بناء المعنى يتم في ضوء تخصصات متعددة حيث يدلي كل تخصص بدلوه لبلوغ المعنى الأكمل أو الأقرب.

ويقف النقد الثقافي في طليعة المقاربات النقدية ما بعد الحداثية التي تعتمد الجمع والمزج بين العلوم والتخصصات، وصهرها في بوتقة واحدة لمعالجة الظواهر الثقافية والأدبية بالتنقيب فيما وراء النص من أنساق وسياقات. وعليه فما حدود العلاقة بين النقد الثقافي والدراسات البينية؟ وكيف استفاد النقد الثقافي من النظريات اللغوية والعلوم الإنسانية -خصوصا- لتجعل منه حقلًا بينيا؟

3. النقد الثقافي والدراسات البينية:

ظهر النقد الثقافي كردّ فعل على النظريات اللسانية والجمالية التي تُعنى بالأدب باعتباره ظاهرة لسانية شكلية من جهة، أو ظاهرة فنية وجمالية شعرية من جهة أخرى، فحاول جاهدا إبراز المسكوت عنه، وكشف الأنساق الثقافية المضمرّة المتخفية تحت عباءة الجمالي والنخبوي.

1.3 مفهوم النسق الثقافي :

يحظى مصطلح النسق الثقافي بأهمية كبيرة إذ "يشكل قضية مركزية في النقد الثقافي" ¹² خاصة إذا عرفنا أن أقصى ما يرمي إليه هذا الأخير هو كشف "ونقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغته" ¹³؛ فالنقد الثقافي موجّه خصيصا للكشف عن هذه الأنساق المتوارية والمختفية خلف النصوص والسلوكات الإنسانية المتنوعة والمتعددة.

والنسق في الاصطلاح "مساق يخضع لقاعدة ومكوّن من وحدتين أو أكثر من النمط نفسه" ¹⁴

كما يرد مرادفا لمعنى "البنية structure أو معنى النظام system حسب مصطلح دي سوسير De Saussure" ¹⁵ وهو بهذا يتضمن دلالة على النظام، والترتيب، والتسلسل، غير أنه ليس "من السهل

تنميطة وحصره في تخصص وحقل ما نظرا لما يشغله من حيّز دلالي واسع، حيث يتداول في مجالات متعددة: كاللغة، والنقد، والمجتمع، والأيدولوجية، بل وحتى الموضة (الأزياء) وهذا يدلّ على قدرته على الانزياح، بسبب غناه وشموليته وتعدد دلالاته؛ إذ توظفه هذه الحقول المتباينة بدلالاته المحددة أو المتعارف عليها، فهو لا ينزاح تبعا لمجال هذا الحقل أو ذاك، بل بالعكس ينزاح المجال أو الحقل ليصب في قناته" ¹⁶.

وللنسق سمات تميّزه وتجعل منه عنصرا فعّالا ومهمّا في النقد الثقافي ومن ذلك اتصافه "بميزة التشجير أو التفرع أي: بقدرته على التناسل النسقي بأن يتشجر عن النسق الرئيس أنساق فرعية" ¹⁷ وتعرّز هذه الميزة لتغدو شرطا أساسيا في كلّ نسق رئيسي، وذلك بأن يكون قادرا على الانشطار والتفرع والتوالد وهذا ما يمنحه القدرة على "أن يتكرر بداخل نفسه: من الممكن أن ينشئ مجددا في كل خلية أربع خلايا فرعية" ¹⁸؛ فلو أخذنا مثلا النسق السياسي كنسق رئيس فيمكن أن تتفرع منه أنساق أخرى: نسق اجتماعي، اقتصادي، فكري... وهذه التفرعات ناتجة منه ومنبثقة عنه، وهكذا الحال في بقية الأنساق، على وفق قوة النسق وقدرته على التوالد والانشطار.

2.3 مفهوم الثقافة :

يرى راييموند وليامز أنّ الثقافة هي "اسم يحدّد صيرورة ذاتية داخلية، تخص الحياة النخبوية والفنون، وهي أيضا اسم لصيرورة عامة، تخص مشكلات سبل الحياة ووسائلها. وقياسا على أي من الصورتين تملي منظورها على الثقافة، تتغير دلالة الثقافة وتوجهها" ¹⁹ أما ليفي شتراوس وجيميس برادلي فيطلقان مصطلح الثقافة على كل "ما يتعارف عليه الفرد أو المجتمع من معتقد وتفكير موروث يعمل على تنظيم أشياءهم وسلوكهم وأنظمتهم وعلاقاتهم مع بعضهم البعض ومع الآخر المختلف ثقافيا وهي بهذا نظام مغروس في الذاكرة الجمعية اللاشعورية" ²⁰ متنقلة عبر الأجيال، وهذا ما يضمن بقاءها وديمومتها، وتظهر من هذا التعريف الطبيعة التعددية والتركيبية للثقافة فهي إذاً كلّ مركّب يشمل كلّ ما يحمله الإنسان في داخله من صفات وأفكار وإيديولوجيات ومعتقدات موروثية، كما تضم أنماط التفكير والتي تساعد الإنسان على تنظيم سلوكه، وتنظيم علاقاته داخل الجماعة أو خارجها، وما يقوم به من عمليات إنتاجية وطرائق تنظيمية مختلفة لتسير أموره وشؤون الإنسان، كما تشمل لغته وتراثه وتاريخه.

إن هذا التعقيد وهذا التنظيم يدلان على أن الثقافة في حقيقتها نظام متوارث عبر الأجيال أو نسق مضمّر ينتقل عبر اللاوعي الجماعي جيلا عن جيل، مشكلا هويّتها التي تميّز كل عرق عن آخر. واعتبار الثقافة نسقا هو ما ذهب إليه أمبرتو إيكو Umberto Eco: فالثقافة عنده نسق من العلامات المبطنة بمدلولات لدوال تولّد دولا جديدة ومتنوعة، تخص الأفكار والموضوعات... إذ يرى أنّها "نسق أنساق العلامات حيث يصبح داخلها مدلول دال ما دالا لمدلول جديد، كيفما كانت طبيعة النسق" ²¹ سواء أكان كلاما، سلعا، أفكارا، قيما، أحاسيس، إيماءات أم سلوكات.

إن الثقافة من منظور إيكو نسق، وإذا ما أردنا تفكيك هذا النسق، فستكون الثقافة نفسها هي الأداة والطريقة "التي يتم بها تفكيك النسق، داخل ظروف تاريخية وأنتروبولوجية بعينها، ضمن حركة تمنح المعرفة بعدا موضوعيا. وهذا التجزيء يتم على كل المستويات بدءا من الوحدات الإدراكية الأولية وانتهاء بالأنساق الإيديولوجية"²². وإذا ما رمنا تحليل وتفكيك نسق الثقافة فسنجد أنفسنا محتاجين إلى علوم ونظريات مختلفة؛ فالمعتقدات من صميم دراسة علم الأديان وعلم الإناسة، وأنماط التفكير والسلوك من اهتمامات علم النفس، أمّا النُظم والعلاقات الإنسانية فمجالها علم الاجتماع.

نستنتج مما سبق أن الثقافة ذات طبيعة مركبة وأن النسق بدوره متعدّد ومتجذّر في الثقافة وتبعاً لذلك يصبح النسق الثقافي أكثر تفرّعا؛ إذ يتداخل مع تخصصات عديدة، وإذا ما حاولنا رصد النسق الثقافي المضمّر في الإنتاج الثقافي تعيّن علينا أيضا الاستعانة بعلوم وتخصصات عديدة تراعي الطبيعة الأخطبوطية للنسق؛ لهذا كان النقد الثقافي تخصّصا متعدد الروافد والمرجعيات سواء أكانت علومنا إنسانية كالتاريخ، الإثنولوجيا، علم الإناسة، علم النفس، علم الاجتماع، الفلسفة، علوم الإعلام، وعلوم الحضارة.. أم مقاربات نقدية كالبنوية، السيميائيات، التفكيكية، التأويلية، التداولية، النقد النسوي، الماركسية الجديدة، والتاريخانية الجديدة...

إذاً فالنقد الثقافي يستمد طبيعته البينية والتعددية المنهجية من السمة الأخطبوطية للنسق وتداخله مع مجالات مختلفة، كما يستمد ذلك أيضا من سمة التنوع والتعقيد لدى الثقافة، وبهذا استحق النقد الثقافي أن يكون وجها للدراسات البينية وشكلا من أشكال المقاربات متعددة التخصصات.

بقي الآن أن نجيب عن السؤال الثاني وهو ما درجة استفادة النقد الثقافي من العلوم الإنسانية أثناء الممارسة النقدية ؟

4. روافد النقد الثقافي من العلوم الإنسانية:

لا بد من الإشارة إلى أن النقد الثقافي ما بعد الحداثي قد "استعار مصطلحات من حقول مجاورة لا حصر لها وتبناها أيضا باعتباره نقدا شموليا مفتحا"²³ وسنقتصر في بحثنا هذا على بيان العلاقة بين النقد الثقافي وبين كل من علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم العلامات (السيميائيات) إذ لا يسع المقام للحديث عن علاقاته بالعلوم والنظريات الأخرى.

1.4 النقد الثقافي وعلم النفس:

يعدّ التحليل النفسي أحد أهم المناهج المستخدمة لدى النقاد الثقافيين والذين استفادوا كثيرا من أفكار وتحليلات كل من فرويد Freud ويانغ Yang. وتتجلى فعالية نظرية التحليل النفسي في أنها تساعدنا على فهم وسبر أغوار أنفسنا والولوج إلى "مناطقنا النفسية العاطفية والحدسية واللاعقلية والخفية والمكبوتة، فهذه هي المناطق التي يتصل بها الفنانون المبدعون ويهتمون بها وبدون نظرية التحليل النفسي لن يستطيعوا الوصول إلى التحليل أو الفهم"²⁴ ذلك أن الأنساق المضمرة تفعل فعلها عبر اللاوعي الجماعي لتستقر في وعي كل متّا عن طريق الوراثة كمسلك طبيعي أو الاكتساب والتعليم كمسلك بشري إنساني.

فالأنا العليا يمثل الضمير والأفكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد الجماعة وما يثير الاهتمام حسب برنر Brenner هو "أن الأنا العليا لدينا يرتبط أساسا بالأنا العليا لأسلافنا، فهم المسؤولون عن تكوين الأنا العليا لأبائنا والذين بدورهم يدرّبوننا على الأحاسيس الأخلاقية والمعنوية"²⁵ وكأنها نوع من القوانين والتعليمات مشكّلة ما يسميه علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بالثقافات الفرعية التي لا تختلف عن الثقافة العامة في أنها "تلقن الشخص ما يجب عليه أن يفعله، وما يمكن أن يقوم به، وما لا يجب القيام به"²⁶.

ومن النماذج المتوارثة-حسب علماء التحليل النفسي- والتي تنتقل من الضمير الجمعي إلى الفرد نماذج الأبطال والأساطير والعقد النفسية، ونشير هنا إلى وجود صلة قوية بين هذه العناصر حيث نجد أن العديد من العقد التي ناقشها أتباع فرويد ومن هذا حذوهم "قد ارتبطت بأبطال الأساطير وبطلاتها، وكذلك بأبطال وبطلات الأعمال الدرامية القديمة والذين قد تكون لهم أبعاد أسطورية"²⁷ وأشهرهته العقد عُقدة أوديب، وعقدة إكثرا، وعقدة هرقل، ولكل منها تجلياتها وإفرازاتها المختلفة في الثقافات وعبر الأجيال المتعاقبة، لذلك وجب الالتفات والاعتناء بها لأن "دراسة الأسطورة وعلاقتها بالرمز والطقس لها مكانها المركزي في جميع الدراسات الثقافية، ولها علاقاتها بكل شيء من المشاكل النفسية إلى المعتقدات السياسية"²⁸ مشكلة أنساقا مضمرة منغرس في ذواتنا وأفكارنا، نستحضرها في كل لحظة كتابة أو قراءة أو سلوك.

ومن الأنساق الثقافية المضمرة التي حملتها النصوص "والتي انغrust في اللاشعور الجمعي للأمة، وأخذت في التناسل عبر الأجيال هو نسق الفحولة حيث القوة والتفرد والذات المتعالية"²⁹، ولا يبعد أن يكون نابعا ومتولدا من نسق البطولة. وقد ظهر جليا في الكثير من نصوص المدح والهجاء وحتى الغزل العذري.

إن الإمساك بخيوط هذه الأنساق الثقافية المضمرة لا يتحقق إلا بإلمام واسع بنظريات التحليل النفسي لفهم العلاقة الكامنة بين النفس البشرية وعملية الإبداع إنتاجا وتلقيا، ومن ثم الوقوف على الآليات التي ساهمت في تمرير وتكريس هذه الأنساق وهيمنتها على شعورنا وعواطفنا وحتى على سلوكياتنا.

2.4 النقد الثقافي وعلم الاجتماع:

يهتم علماء الاجتماع بدراسة السمات الثقافية في المجتمع مقدما خدمة جلية للنقد الثقافي في الكشف عن الأنساق المضمرة المتمثلة في "السمات الأديولوجية للثقافة الشعبية والدور الذي تلعبه في العالم الاجتماعي والسياسي والدور الذي يلعبه الناس في المجتمع...ويركز بعض النقاد الثقافيين اهتمامهم على السمات الاجتماعية والسياسية للثقافة الشعبية"³⁰ من خلال تناولهم لموضوعات تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة "وتروم من وراء ذلك إلى اختبار مدى تأثير تلك العلاقات على شكل الممارسات الثقافية، بهدف فهم الثقافة بجميع أشكالها المركبة والمعقدة، وتحليل السياق الاجتماعي والسياسي، في إطار ما هو جليّ في حد ذاته"³¹

وقد تولّد عن الدراسات الثقافية المهتمة بالجانب الاجتماعي ميدان بحثي ومعرفي جديد عرف باسم السوسيولوجيا الثقافية والتي تهتم "بالربط بين النص والسياق بحجة أن النص أقوال تعبر عن مصالح وأغراض اجتماعية وثقافية وحضارية من قيمة المبادلة"³² وبالتالي البحث في العلاقة بين نسق لغوي/ نسق اجتماعي ثقافي.

وتنطوي ثقافات الشعوب على العديد من الأنساق الثقافية والتي تتشكل "بالتفاعل بين الجوانب الذهنية والمادية والمعنوية، وأهميتها في تفسير حياة المجتمعات، لما تحمله من معتقدات وصور وأفكار وأخيلة تركز عليها الحياة الإنسانية. لكن النسق يظل منفتحاً ومتغيراً باستمرار، نظراً لقدرته على ترسيخ القيم في أذهان المتلقي، والتي في الغالب تكون متناقضة، تبعا للمتغيرات التي تعرفها الثقافة، ويعرفها المجتمع"³³ ، ووسط هذه المتغيرات تتصارع الأنساق وتتناقض. ومن أهم الأنساق التي تحاول الثقافة ووسائل الإعلام ترسيخها نذكر: التعددية الثقافية، الهوية، الهيمنة، علاقة الأنا بالآخر، صورة الآخر، الشائعات، تأثير وسائل الإعلام، المقدس والمحرم...وكلها كامنة خلف النصوص والسلوكات والعادات والطقوس

3.4 النقد الثقافي وعلم العلامات :

يهتم علم العلامات أو السيميائيات "بكل شيء يمكن النظر إليه كعلامة أو رمز ويفترض في الوقت ذاته أن كل شيء يمكن النظر إليه كعلامة"³⁴ فهو يدرس حياة العلامات والإشارات داخل المجتمع وهذا ما يجعله أحد العلوم السيادية التي لها استخدام في جميع دروب المعرفة؛ ومن ضمنها العلوم الإنسانية والاجتماعية والآداب، والفنون، والأزياء، والإعلانات، والسلوكات، والعادات والتقاليد.

ولأن اللغة هي أكثر الظواهر الثقافية شيوعاً وتنظيماً فإن الظواهر الثقافية تمثل "في جوهرها بنى نسقية من العلامات الدالة؛ ولذا اتجه محللو الثقافة إلى دراستها من منطلق سيميائي...كما أن الثقافة تتوسل بالأنظمة السيميائية - كما يرى شتراوس - في تنظيم حياة البشر بنائياً"³⁵

أما عن الأهمية النقدية للسميائيات وخاصة بالنسبة للنقد الثقافي فقد مثّلت هذه النظرية "ركيزة معرفية ونقدية متميزة في مسار الدراسات الثقافية ومنهجية التحليل الثقافي: إذ ارتبطت السيميائيات بالثقافة ومفهوماتها في الأطروحات والنظريات حول النقد الثقافي"³⁶ نظرا لأن الثقافة تبدو في جوهرها نظاما للعلامات، وعلى هذا الأساس أصبحت النظرية السيميائية أحد المداخل في فهم وتحليل الظواهر الثقافية، وظهر مجال (سيميائية الثقافة) كأحد المجالات المعرفية المستحدثة في حقل الدراسات الثقافية مجسّدة تلك العلاقة الوطيدة بين العلامة والثقافة إلى درجة جعلت أمبرتو إيكويحصر الثقافة برغم تنوعها وتعقيدها في أنها "ليست شيئا آخر سوى نسق أنساق العلامات".³⁷ فظواهر الثقافة هي أنظمة للعلامات، كما تعدّ أيضا من منظور جماعة (موسكو- تارتو) "نسقا دلاليا يتضمن عدة أنساق (فنون، ديانات، طقوس)"³⁸ وبهذا الاعتبار فإنّ "العلامة تتألف من دال ومدلول ومرجع ثقافي"³⁹ قياسا على عناصر الدليل اللغوي، وباختلاف الظواهر الثقافية وتعدّد تجلياتها تتعدد العلامات وتتعدد معها الدوال والمدلولات وتختلف ذلك أن "نسق العلامات والإشارات يختلف باختلاف الثقافات؛ فالثقافة تلعب دورا مهما في تحديد أنواع العلامات والإشارات والرموز المستخدمة في مجتمع ما ذي ثقافة مميزة"⁴⁰

كما تلعب الثقافة بتنوّعها دورا في تحديد دلالة هذه العلامات لأن "إدراج العلامة ضمن أنساق ثقافية متنوّعة يجعلها تكتسب دلالة مختلفة ضمن كل نسق ثقافي جديد"⁴¹ فلا بد من تحديد النسق الثقافي أولا ليسهل تفسير تلك العلامة وبيان دلالتها. فكل الطقوس والأحداث والأفعال الصادرة عن الأفراد والجماعات من منظور سيميائيات الثقافة لها دلالة ولها "معنى في علاقتها بالثقافة الموجودة بها، وقد ينظر إلى هذه الثقافة على أنها نظام إشارات وأعراف أو قواعد لتفسير هذه العلامات أو الإشارات"⁴²؛ فهي ليست مجرد أفعال عشوائية جوفاء خالية من أي دلالة، بل على العكس فهي محملة بحمولات ودلالات ثقافية واجتماعية متراكمة عبر زمنها الطويل.

5. أنموذج تطبيقي : صورة الآخر (صورة الحاكم) في لافتات أحمد مطر

تتعدد الأنساق المضمرّة التي تترسخ عبر الخطابات الجمالية شعرا ونثرا، متنوّعة بين الفحولة أو الذكورة، البطولة، الذاتية، الهيمنة، المقدس والمحرم، الأنا والآخر... وتعدّ صورة الآخر من أكثر الأنساق حضورا في الفترة الاستعمارية وما بعدها، والآخر في أبسط صوره "هو مثل أو نقيض الذات أو الأنا"⁴³ فالآخر يستمد وجوده من الأنا كما يستمد الأنا وجوده من الآخر.

تقوم أغلب لافتات أحمد مطر على تصوير الصراع الدائر بين ثنائية الحاكم/ المحكوم في عالمنا العربي، هذا الصراع الذي من المفترض أن يتحد طرفاه ضد طرف آخر مختلف عنهما وهو الغرب الاستعماري في مقابل الشرق كما هو شائع في عديد الأدبيات العربية، لكننا نجد الأمر مختلفا لدى مطر والذي يقول في لافتة بعنوان " سر المهنة "⁴⁴

اثنان في أوطاننا

يرتعدان خيفة من يقظة النائب اللس ... والحاكم

اعتاد القارئ العربي طوال قرون أن يرى ويسمع الشعراء من بني لسانه وهم يرسمون صورة الحاكم (ال خليفة، الأمير، الوالي) في منزلة تفوق البشر متفردا ومتميزا بل ومقدّسا لا يقبل الانتهاك أو التسوية بغيره، إما لسبب ديني عملا بمبادئ الشريعة الإسلامية التي تدعو إلى طاعة الحاكم في حدود الطاقة والمعروف، وإما لسبب دنيوي، وهذا الغالب، وهو الرغبة في التكسب والتقرب بنيل أعطياته واتقاء شره، وقد كانت عاقبة ما اقترفه بعض عبيد الشعر أن رسخوا لنسق الفحولة حيث أنا المتضخمة والقوة والذات المتعالية التي تذكرها النرجسية وتعظيم الأنا وكذا بطانة السوء.

يختلف الأمر عند مطر إذ نجده في الكثير من قصائده ولافاته وقد جرد حاكمه من كل الفضائل والألقاب مغتنما أي فرصة للتعبير عما في نفسه من تبرّم بالحكام وسياساتهم والتعريض بهم فكثيرا ما يحوّل وصفه لأوضاع أو سرده لوقائع يومية إلى مفارقة عجيبة تدعو للسخرية والتأسف في أن واحد، ويمكن ردّ ذلك إلى سببين رئيسيين؛ أولهما وعيه السياسي المبكر وحبّه للصراحة، وثانيهما ما تعرض له من اضطهاد في بلده العراق، وتضييق في مُهاجره الكويت، بل واستمرت معاناته حتى بعد نفيه واستقراره بلندن خاصة بعد اغتيال رفيق عمره وقضيته الرسام الكاريكاتوري الكويتي ناجي العلي.

في النص أعلاه يعبر مطر عن تلك العقدة النفسية المتبادلة بين الحاكم ورعيته؛ فكل منهما يخشى الآخر، لا شيء مستقر على حال إذ يمكن في أي لحظة أن تتحول أنا/الحاكم القاهرة والسادية والتي تتلذذ باستعباد الآخر/المواطن واستغلاله واستغفاله إلى أنا مقهورة خائفة بل وترتعد خيفة (بصيغة المضارع الدال على الاستمرار والتجدد) هذا الانقلاب في الموازين سببه استيقاظ ضمير المواطن واسترجاع وعيه ليتحول معه هذا الآخر/المواطن إلى أنا لها وجودها وحدودها بل وتمتلك سلطة محاسبة ومعاقبة الآخر/الحاكم الخائن.

من جهة أخرى يتبدى الفكر الماركسي بين ثنايا أسطر هذه اللافتة، هذا الفكر الذي يختصر الظواهر الاجتماعية والأدبية في فكرة الصراع الطبقي، صراع بين الحاكم بما هو ممثل للرأسمالية النفعية والرعية التي تمثل الأغلبية الكادحة والمسحوقة، ولا سبيل لحسم هذا الصراع وإنهاءه إلا بثورة يقودها المملوك ضد مالكه، وهذا ما يتمناه الشاعر فيما لو استيقظ ذلك المارد النائب. إن يقظة هذا النائب هي نقطة ضعف هذا الطاغية، هي كعب أخيل التي ستودي بحياته.

يحدد الشاعر أرض الصراع التي تشهد مثل هذه الحالات الشاذة من اللا أمن بالمنطقة العربية، ولعل إطلالة سريعة على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للوطن العربي كفيلة بإدراك حجم المأساة التي يعانيها أبنائه.

كما نشير هنا إلى المكانة التي يولها الإسلام للعمل كطريق مشروع لكسب الرزق، وتحريمه لمختلف المسالك والطرق غير المشروعة والتي قد يلجأ إليها البعض لجمع المال وتكديس الثروة دون بذل أدنى مجهود كالسرقة والاعتداء... ولأن الحاكم في نظر مطريعيش على عرق المواطن وامتصاص دمه فهو لا يختلف عن اللص الذي يقتات على السلب والنهب، وهذا ما جعل الشاعر يجمع بينهما على صعيد واحد، فكما يستغل اللص غفلة أو غفوة ضحيته فكذلك الحال بالنسبة للحاكم.

من الناحية السيميائية يشير العنوان (سر المهنة) إلى خصوصية تمنح صاحبها تميزا وتفردا لا يشاركه فيهما غيره، على أن الغالب في استعمال هذه العبارة هو الكناية عن الجودة والإتقان الذي يبلغ حد الإبداع، وبإلها من مفارقة مضحكة مبكية أن تجتمع هذه المميزات في شخصين فقط هما اللص والحاكم!

يرمز اللص إلى فئة طفيلية في المجتمع؛ فئة عديمة الإحساس والمسؤولية، نرجسية موهلة في حب الذات وتحصيل ما ينفعها، تسعى إلى تعويض ما تفتقده بشئ الطرق بسبب شعورها بعقدة النقص، فاللص هنا مجرد علامة وأداة للضرر والشر، فهل الحاكم كذلك؟

للأسف هذا ما يراه مطر في حاكمه فهو كسابقه عديم الإحساس بشعبه، عديم المسؤولية، نرجسي وسادي، يسعى لتعويض نقصه المتمثل في عدم شعوره بالأمن النفسي من خلال اتباع وسائل الترهيب والإقصاء.

تتحول هذه الصورة المستحدثة للحاكم/ اللص أو اللص/ الحاكم* إلى علامة فارقة تميز العالم العربي عن غيره من البلدان، فمتى وجد الحاكم الأمن افتقده المواطن، ومتى أمن المواطن واستيقظ ضميره فقد الحاكم الأمان، وكان أقرب إلى الهلاك.

6. خاتمة:

بعدما أبنّا عن العلاقات التي تربط النقد الثقافي بمختلف المجالات المعرفية وخاصة العلوم الإنسانية يمكن أن نقول أن النقد الثقافي هو منهج بيئي بامتياز إذ يمتح من علوم مختلفة سواء على مستوى المصطلحات والشبكة المفاهيمية أم على مستوى الإجراءات والأدوات النقدية الموظفة لتحليل النصوص خصوصا والظواهر الثقافية عموما.

فهو يستند على علم النفس في الكشف عن الأنساق النفسية والدوافع المعنوية التي تقف وراء الإبداع أو السلوك من خلالها ربطها ببنية اللاوعي الفردي أو الجمعي،

ويستعين بعلم الاجتماع وعلم الإناسة في الكشف عن الأنظمة والعلاقات الرابطة بين الأفراد والجماعات والتي على ضوءها يمكن الكشف عن الأنساق الاجتماعية ومدى تأثيرها على الأفراد والمجتمعات.

إضافة إلى السيميائيات التي تعدّ مرجعا أساسيا لتفسير النصوص والسلوكيات والطقوس والتي من شأنها أن تمثل علامات تحمل مدلولات وأنساق متوالية بحيث يتم الكشف عنها بشرط مراعاة الإطار الثقافي الخاص.

يتضح لنا مما سبق أن النقد الثقافي ما هو إلا صورة من صور الدراسات البيئية وشكل من أشكالها نظرا للترسنة الثرية التي ينهض عليها، والمتمثلة في العلوم والتخصصات العلمية والإنسانية إضافة إلى النظريات والمقاربات النقدية والفلسفية، وما اقتصرنا عليه في هذا البحث كفيل بتأكيد ذلك في انتظار أن يستقل النقد الثقافي بأدواته الإجرائية وطريقته في الدراسة والتحليل.

7. الهوامش:

¹ وجليسي، يوسف، (2007) مناهج النقد الأدبي، مفاهيمها وأسسها، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ص 34.

² هويدي، صالح، (1998) النقد الأدبي الحديث، قضايا ومناهج، منشورات جامعة السابع أبريل، ليبيا، ص 140.

³ وجليسي، يوسف، المرجع السابق، ص 43.

⁴ حمودة، عبد العزيز، (2003)، الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 298 ص 220 - 221.

⁵ البازعي، سعد والرويلي، ميجان، (2002)، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، ص 226.

⁶ M.Nissani: Fruits; salads; and smoothies: A Working definition of interdisciplinarity, Association for Integrative Studies; Newsletter p18.

⁷ رمضان، صالح بن الهادي، (د.ت)، التفكير البيئي، أسسه النظرية وأثره في دراسة اللغة وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، د.ط، ص 16.

⁸ جهاد حسن، كاظم، (2013)، في البيئية، نشأتها ودلالاتها، مجلة الآداب، جامعة الملك سعود، السعودية، المجلد 25 (2)، ص 241.

⁹ رمضان، صالح بن الهادي، المرجع السابق، ص 19.

¹⁰ البازعي، سعد، (2013)، الدراسات البيئية وتحديات الابتكار، مجلة الآداب، جامعة الملك سعود، السعودية المجلد 25 (2)، ص 221.

¹¹ حمداوي، جميل، المرجع السابق، ص 105.

¹² خليل، سمير، (2014)، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، ص 292.

¹³ الغدامي، عبد الله، (2005)، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3 ص 83.

- ¹⁴ برنس، جبرالد (2003)، المصطلح السردى، معجم المصطلحات، تر:عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 1، ص 228.
- ¹⁵ الغدامي، عبد الله، المرجع السابق، ص 76.
- ¹⁶ جبار أصواب الله، عروبة، (2013)، الأهوار في الرواية العراقية، دراسة في ضوء النقد الثقافي، رسالة ماجستير، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، العراق، ص 6.
- ¹⁷ جبار أصواب الله، عروبة، المرجع نفسه، ص 6.
- ¹⁸ لومان، نيكلاس، (2010)، مدخل إلى نظرية الأنساق، تر: يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، العراق، ص 36.
- ¹⁹ المناصرة، عز الدين، (2013)، الهويات والتعددية الثقافية، قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، الصايل للنشر والتوزيع، الأردن، ص 7.
- ²⁰ حسن، سمير إبراهيم، (2007)، الثقافة والمجتمع، دار الفكر، سوريا، ط 1، ص 34.
- ²¹ إيكو، أمبرتو، (2007)، العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، ص 177.
- ²² إيكو، أمبرتو، المرجع نفسه، ص 177.
- ²³ خليل، سمير، المرجع السابق، ص 6.
- ²⁴ أيزابجر، آرثر، (2003)، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الأساسية، تر: وفاء إبراهيم ورمضان بسطاوي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 1، ص 188.
- ²⁵ أيزابجر، آرثر، المرجع نفسه، ص 161.
- ²⁶ حسن، سمير إبراهيم، المرجع السابق، ص 70.
- ²⁷ أيزابجر، آرثر، المرجع السابق، ص 179.
- ²⁸ أيزابجر، آرثر، المرجع نفسه، ص 179.
- ²⁹ خلباص حمادي، إسماعيل، (2013)، النقد الثقافي: مفهومه، منهجه، إجراءاته، مجلة كلية واسط، كلية التربية بجامعة واسط، العراق، العدد 13، ص 17.
- ³⁰ أيزابجر، آرثر، المرجع نفسه، ص 222.
- ³¹ بعلي، حفناوي، (2007)، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، ص 19.
- ³² خليل، سمير، المرجع السابق، ص 195.
- ³³ الهرمودي، ميلود، (2017)، الأنساق الثقافية في الخطاب الروائي عند عبد الله العروي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، العدد 99، ص 697.
- ³⁴ أيزابجر، آرثر، المرجع السابق، ص 123.
- ³⁵ الهرمودي، ميلود، المرجع السابق، ص 690.
- ³⁶ الهرمودي، ميلود، المرجع نفسه، ص 689.
- ³⁷ أمبرتو إيكو، المرجع السابق، ص 273 - 274.
- ³⁸ خليل، سمير، المرجع السابق، ص 201.

³⁹ خليل، سمير، المرجع نفسه، ص 201.

⁴⁰ فوزي معاذ، مها، (2009)، الأنثروبولوجيا اللغوية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ص 45.

⁴¹ يوسف، عبد الفتاح، (2014)، السيميائيات الثقافية، تفعيل الأنساق وقمع الدلالات، مجلة فصول، الهيئة

المصرية العامة للكتاب، مصر، العدد 91-92، ص 15.

⁴² أيزابجر، آرثر، المرجع السابق، ص 150.

⁴³ البازعي والرويلي، المرجع السابق، ص 21.

⁴⁴ مطر، أحمد (2011) المجموعة الشعرية، دارالعروبة، لبنان، ط 1، ص 102.

* لا فرق بين الحاكم اللص، واللس الحاكم عند أحمد مطر؛ حيث نجده في لافتة أخرى بعنوان (حالات) يقارن بين ما يؤول إليه حال اللص في أوروبا وأمريكا والدول العربية إذ يغدو مدير ناد في الأولى، وزعيم عصابات في الثانية، ورئيسا للبلاد في الثالثة !!! ينظر المجموعة الشعرية، ص 55.